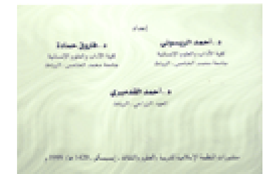




- تقديم
- مقدمة
- I ا جميل يحب الجمال
  - التربية الجمالية وأثرها في حفظ البيئة د. أحمد الريسوني
    - ـ من القرآن الكريم
    - ـ القرآن ينبه على مظاهر الجمال في الكون والمخلوقات
    - ـ التربية الجمالية في السنة النبوية
- II إنما الدين النصيحة
  - الإنسان وعلاقته بالبيئة - رؤية إسلامية د. فاروق حمادة
- III ومن أعمالكم سلّط عليكم
  - الأزمة البيئية المعاصرة وخلفياتها الثقافية د. أحمد القدميري
    - 1. تحديد المفاهيم والمنطلقات
      - أ) الموروث الثقافي اليوناني ـ الإغريقي
      - ب) الانفجار الديمغرافي لساكنة العالم
      - ج) النهب الكلي أو الجزئي لرأسمال الإنتاج
      - د) الانفجار التكنولوجي والصناعي
      - و) التجمعات السكنية البشرية
      - هـ) ظهور بوادر فلسفية جديدة وبشكل تدريجي
    - 2 . الأزمة البيئية المعاصرة
      - *تلوث الهواء والأرض والمياه
        - أ) المجال الكيميائي
        - ب) المجال الفيزيائي
      - * انقراض الأصناف النباتية والحيوانية واستنزاف الموارد الطبيعية
- <u>الخلاصة</u>

تقديم

في إطار اهتمام المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة بنشر الثقافة الإسلامية وتنميتها، وإشاعة الوعي السليم بمضامينها ومقاصدها، وعنايتها بخدمة الفكر الإسلامي وتوطيد دوره وتقوية مساهمته في الحياة المعاصرة، أدرجت المنظمة في خطة عملها الثلاثية (2000-1998)، مشروعاً يعنى بتوطئة التراث ومعالجة قضايا العصر، يهدف إلى تناول التراث الإسلامي والتعريف به والتعامل معه من منظور معاصر، وشرح ما استغلق من قضاياه ومفاهيمه للباحث والقارىء المعاصر، ويتناول قضايا العصر الثقافية والاجتماعية ودراسة انعكاساتها على الجوانب الثقافية والاقتصادية والسياسية من منظور المبادىء والأسس الإسلامية، والإجابة عما تثيره هذه القضايا من أسئلة وما تطرحه من مشكلات.

وتتمثّل إحدى واجهات هذا المشروع في إعداد سلسلة من خمس عشرة دراسة تقدم وجهة النظر الإسلامية في الموضوعات والمشاكل التي تهم المجتمع المعاصر، وترجمتها وإصدارها باللغات الثلاث: العربية والإنجليزية والفرنسية، في كتيبات، ونشرها من خلال قاعدة المعلومات الإسلامية التي تعدها المنظمة للتعريف بالإسلام ديناً وثقافةً وحضارةً عبر شبكة الأنترنيت العالمية.

ويسعد المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة أن تقدم هذا الكتاب:"دراسات بيئية: تحليل لبعض المشكلات من وجهة نظر إسلامية" الذي يتناول بالشرح مبادىء الإسلام في التعامل مع البيئة، ويبرز قيمة هذه المبادىء في معالجة البيئة وتطهيرها من عوامل التلوث والفساد، ويخلص إلى نتيجة على قدر كبير من الأهمية، وهي أن ما نعانيه من آثار التلوث في مجتمعاتنا المعاصرة، إنما جاء نتيجة إغفال تطبيق مبادىء الدين الحنيف.

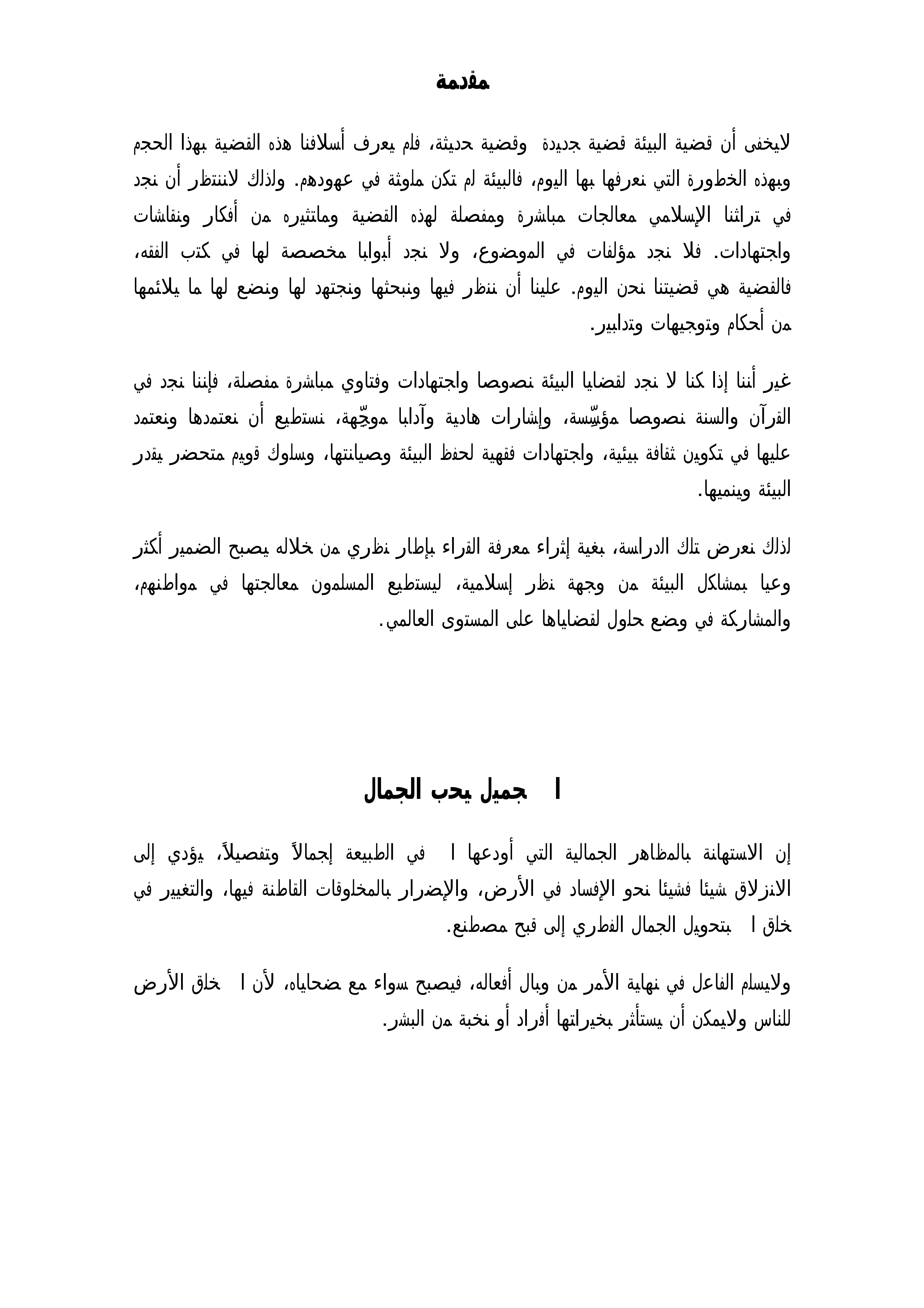
ونتقدم بالشكر إلى مؤلفيه: الدكتورأحمد الريسوني والدكتور فاروق حمادة والدكتور أحمد القدميري، على حسن عرضهم لوجهة النظر الإسلامية حول هذا الموضوع.

ونتمنى أن نكون قد أسدينا إلى القراء بإصدار هذا المؤلف، خدمة تتناسب مع ما يعلقونه من آمال على المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.

وندعو ا   أن يشملنا جميعاً برعايته وتوفيقه، ويهدينا سواء السبيل، وأن ينفع بهذا الكتاب نفعاً عميماً.

الدكتور عبدالعزيز بن عثمان التويجري

المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة



مقدمة

لايخفى أن قضية البيئة قضية جديدة وقضية حديثة، فلم يعرف أسلافنا هذه القضية بهذا الحجم وبهذه الخطورة التي نعرفها بها اليوم، فالبيئة لم تكن ملوثة في عهودهم. ولذلك لاننتظر أن نجد في تراثنا الإسلامي معالجات مباشرة ومفصلة لهذه القضية وماتثيره من أفكار ونقاشات واجتهادات. فلا نجد مؤلفات في الموضوع، ولا نجد أبوابا مخصصة لها في كتب الفقه، فالقضية هي قضيتنا نحن اليوم. علينا أن ننظر فيها ونبحثها ونجتهد لها ونضع لها ما يلائمها من أحكام وتوجيهات وتدابير.

غير أننا إذا كنا لا نجد لقضايا البيئة نصوصا واجتهادات وفتاوي مباشرة مفصلة، فإننا نجد في القرآن والسنة نصوصا مؤسِّسة، وإشارات هادية وآدابا موجِّهة، نستطيع أن نعتمدها ونعتمد عليها في تكوين ثقافة بيئية، واجتهادات فقهية لحفظ البيئة وصيانتها، وسلوك قويم متحضر يقدر البيئة وينميها.

لذلك نعرض تلك الدراسة، بغية إثراء معرفة القراء بإطار نظري من خلاله يصبح الضمير أكثر وعيا بمشاكل البيئة من وجهة نظر إسلامية، ليستطيع المسلمون معالجتها في مواطنهم، والمشاركة في وضع حلول لقضاياها على المستوى العالمي.

ا جميل يحب الجمال

إن الاستهانة بالمظاهر الجمالية التي أودعها ا في الطبيعة إجمالاً وتفصيلاً، يؤدي إلى الانزلاق شيئا فشيئا نحو الإفساد في الأرض، والإضرار بالمخلوقات القاطنة فيها، والتغيير في خلق ا بتحويل الجمال الفطري إلى قبح مصطنع.

ولايسلم الفاعل في نهاية الأمر من وبال أفعاله، فيصبح سواء مع ضحاياه، لأن ا خلق الأرض للناس ولايمكن أن يستأثر بخيراتها أفراد أو نخبة من البشر.

التربية الجمالية وأثرها في حفظ البيئة

د. أحمد الريسوني(*)

وأعني بالتربية الجمالية كل الآداب والتوجيهات والتنبيهات التي تجعل الإنسان ينتبه إلى الجوانب الجمالية في الحياة وفي الكائنات ويحس بها ويقدرها ويتذوقها ويستمتع بها ويعمل على حفظها وتنميتها. وقد اعتنى الإسلام ـ قرآنا وسنة ـ بهذا المستوى الرفيع من مستويات التربية، وعمل على تنميته في كافة جوانب الكيان البشري بروحه وقلبه، وبفكره وعاطفته، وبسمعه وبصره، وبشمه ومذاقه.

وفيما يلي نماذج من ذلك، من القرآن الكريم أولا، ثم من السنة النبوية ثانيا.

من القرآن الكريم

أول مظهر جمالي ينبغي للإنسان أن يلتفت إليه ويقدره ويحفظه، هو جمال الخلقة البشرية ذاتها.

وفي هذا يقول ا سبحانه { يا أيها الإنسان ما غَرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فَعدَلك في أي صورةٍ ما شاء ركبك } سورة الانفطار(الآيات 8-6).

ولايخفى القصد إلى التنبيه على الجانب الجمالي والتحسيني في خلق الإنسان: { فَسواكَ فعدلَك }
.

وفي السورة الأخرى { لقد خَلَقْنا الإنسان في أحسن تقويمٍ} (سورة التين، الآية 4). لأن قدرة ا التي تقصد كثير من الآيات إظهارها، كان يمكن إظهارها بإظهار الخلق نفسه، وكثير من الدقة والإعجاز والكمال فيه، ولكن ا عز وجل يتحدث عن جانب آخر لهذا الخلق وهو الإحسان والحسن والجمال {لقد خَلَقْنا الإنسان في أحسن تقويم} وفي الدعاء كان النبي ص يقول : >اللهم كما حسنْتَ خَلْقي فحسن خُلُقي...< فالرسول يلفت نظرنا، وهذا هو الأهم، إلى أن الإنسان حين ينظر إلى المرآة أو ينظر إلى صورته أو حتى إلى صورة غيره، ينبغي ألاتغيب عنه مظاهر الإحسان والتحسين >كما حسنتَ خَلْقي < وأن يطلب تحسيناً آخر وجمالاً آخر هو جمال الخُلُق، الذي يعول فيه على الاكتساب. فالتحسين الخَلْقي موهوب بكامله وإنما علينا صيانته، ولكن علينا أن نطلب تحسينا آخر وجمالا آخر هو الجمال الخُلقي والتحسين الخُلقي.

القرآن ينبه على مظاهر الجمال في الكون والمخلوقات

ثم ينتقل القرآن بعد الإنسان إلى مظاهر الكون التي يلفت ا نظرنا فيه إلى الجمال، وإلى الجانب الجمالي، فالآيات التي تتحدث عن الكون وعن المخلوقات كثيرة جداً وليست هي ما أريد، أريد الآيات التي نبهت على الجانب الجمالي لنقدره ونعتبر به ونستفيد منه فيما نحن بصدده. نقرأ في سورة ق {أفلم ينظروا إلى السماءِ فوقهم كيف بنيناها} ثم أضاف { وزيناها } ليس فقط كيف > بنيانها<، وانتهى الأمر، كيف بنيناها وزيناها. إذن هناك بناء محكم متقن وهناك شيء آخر مقصود وضعه ا عن قصد ويذكره عن قصد ويلفت أنظارنا إليه عن قصد فيقول: { بنْيناها وزيناهاومالها من فروج} وهذا مظهر آخر من مظاهر جمالها أنه ليس فيها فروج، ليس فيها ثغرات وليس فيها فتحات وشقوق. { والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنافيها من كل زوج بهيج } (الشيء البهيج، أي الشيء الجميل الذي إذا رئي أدخل البهجة على الناظر والمتأمل). {وأنبتْنا فيها من كلّ زوج بهيج تبصرةً وذكرى لكل عبدٍ منيب. ونزلْنا من السماءِ ماء مباركاً فأنبتنا بهِ جناتٍ} والحديث عن جنات الدنيا، وطبعا المقصود بوصفها أنها جنّات هو لفت النظر إلى جمالها. فالجنات عادة وصف يراد به إظهار جمال الشيء وجمال الطبيعة وجمال البساتين ويوصف جمالها بأنه جنات. { فأنبتْنا بهِ جناتٍ وحب الحصيدِ والنخلَ باسقاتٍ لها طلع نضيد} طبعا هذه كلها أوصاف جمالية لأن النخل باسقات ولها طلع نضيد، هذا ليس حديثاً عن الثمار وعن الأكل والشرب والرزق الذي نأخذه من النخيل، ولكنه يصفها وصفاً يبرز معالم جمالها {والنخل باسقاتٍ لها طلع نضيد}. ونقـرأ فـي سـورة سـبأ { لقد كان لسبإ في مساكِنِهم آيةٌ جنتان} إذاً ا عز وجل يثني على ذلك الجمال والبهاء الذي وصل إلى حد أن يوصف بأنه جنة دنيوية كانت لسبإ في مساكنهم. فهذا الثناء على هذه الحدائق التي وصلت إلى درجة أن توصف بالجنة، إنما هو تنبيه على أهمية ذلك وعلى كونه نعمة يجب أن يشكر ا عليها، وحينما لم يشكر عليها كان ما كان مما هو مذكور في قصة أهل سبإ.

وفي سورة النمل نقرأ: { أَمن خلقَ السماواتِ والأرض وأنزلَ لكم من السماءِ ماء فأنبتْنا به حدائِقَ ذاتَ بهجةٍ} حدائق ذات بهجة. إذن ليست فقط حدائق ذات ثمار، ولكن أيضا نعمة أخرى يلفت القرآن الكريم النظر إليها، وهو أنها ذات بهجة إذن مجرد المرور بجانبها والنظر إليها، شيء له قيمة، يجب الالتفات إليها ويجب ألاّ نغفلها وألا ننظر إلى هذه الحدائق فقط على أنها مصدر رزق ومصدر طعام، ولكنها أيضا مصدر بهجة، { ما كان لكم أن تُنْبِتوا شجرها أإله مع اللهِ بل هم قوم يعدِلُون}.

وفي سورة الحج {وترى الأرض هامِدةً فإذا أَنْزلْنا عليها الماء اهتزتْ وربتْ وأنبتتْ من كل زوجٍ بهيجٍ} مرة أخرى الحديث عن البهجة التي مصدرها الجمال في هذه الطبيعة وفي هذه الأشجار والثمار والنباتات.

وفي سورة النحل أيضا آيات عديدة، فسورة النحل أفاضت في لفت الأنظار إلى مخلوقات ا وإلى جانب الجمال فيها ضمن ما تلفت النظر إليه. يقول ا عز وجل في الآية التي سبـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـق أن سمـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـعناها { والأنعام خلقَها لكم فيها دِفْء ومنافع ومنها تاكلون ولكم فيها جمالٌ} ولكم فيها جمال، إذن لم يقتصر على منافع الأكل والدفء والركوب، ولكن قال : { ولكم فيها جمالٌ حين تُريحون وحين تَسرحون وتحملُ أثقَالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفسِ إن ربكم لرؤوفٌ رحيم والخيلَ والبِغالَ والحمير لتركبوها وزينةً } وزينة، وحتى في الخيل والبغال والحمير هناك زينة، فهنا جمال ينبغي أن نلتفت إليه وأن نتذوقه وأن نقدره، ليس فقط أن نلتفت إلى جانب الركوب وحمل الأثقال.

{وهو الذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حِلْيةً} أيضا تستخرجون من البحر حلية وهي تزين وزينة وجمال، إذن البحر أيضا كشأن كافة مخلوقات ا فيه الجانب الجمالي وفيه جانب التزيين والتجميل يلفت ا النظر إليه، وليس فقط إلى ما نستخرجه منه من لحوم.

{ وإن لكم في الأنعام لعِبرةً نُسقيكُم مما في بطونهِ من بين فَرثٍ ودمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين}.

يمكن أن نقول دون أن نتدبر بعيداً إن اللبن نسترزق به ونطعم به أنفسنا وأجسامنا وبطوننا ولكن ا تعالى أضاف قيمة أخرى جمالية وهي أنه لبن سائغٌ، يعني هنا لذة الطعام لأنه كان يمكن أن يخلق ا تعالى أطعمة تقيم أجسامنا وتبقي حياتنا دون أن تكون فيها لذة، فاللذة هي الجانب الجمالي في الطعام، ولهذا نبه ا على ذلك فقال: { لبناً خالصاً سائغاً للشّاربين} فالقيمة الغذائية ليست في لذّته، إذ يمكن أن يكون للشيء القيمة الغذائية التي نعيش بها دون أن يكون لذيذا ودون أن يكون سائغاً، ولكن ا يلفت انتباهنا إلى هذه النعمة التي لايلتفت الناس إليها، فالناس عادة قد لايلتفتون إلا إلى إشباع البطون وإقامة الحياة وحفظها، ولايلتفتون إلى ما في الأطعمة من مذاق ولذة.

التربية الجمالية في السنة النبوية

السنة النبوية تكون دائماً أقرب إلى التفصيل والممارسة العملية التطبيقية، ومنها أيضا نقتبس هذه الأحاديث المنيرة التي تعلم وتدرب على ممارسة الجمال وبناء الحياة الجميلة.

عن ابن مسعود، رضي ا عنه، عن النبي ص قاقال: >لا يدخل الجنة من كان في قلبهِ مثقالَ ذرةٍ من كِبرٍ، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة. قال : إن ا جميلٌ يحب الجمال<(1). الكبر بطر الحق وغمط الناس.

فهذه قاعدة عامة وعظمى >إن الله جميلٌ يحب الجمالَ< إذن أن تكون نعل الإنسان حسنة وثوبه حسنا ومظهره حسنا، هذا ليس من الكبر الذي حذّر منه الرسول ص أبداً، بل هذا شيء يحبه ا ، بينما الكبر كما في الحديث مثقال ذرة منه تمنع دخول الجنة. إذن مظاهر الجمال التي يحرص عليها الإنسان ويميل إليها في الغالب بشكل طبيعي وفطري ليست من الكبر في شيء بل هي من الأمور التي يحبها ا ، لأن ا تعالى نفسه جميل، يحب الجمال، وفي بلاغات مالك، عن عمر بن الخطاب، رضي ا عنه قال :>إني لأحب أن أنظر إلى القارىء أبيض الثياب<(1).

قال ابن عبد البر: >القارىء هنا العابد الزاهد المتقشف، والقراء عندهم العباد والعلماء... ويضيف ابن عبد البر : فقول عمر: رضي ا عنه، في هذا الحديث يدل على أن الزهد في الدنيا، والعبادة ليست بلباس الخشن الوسخ من الثياب. فإن ا تعالى جميل يحب الجمال وفي رسول ا ص الأسوة الحسنة<(2) هذا عن الثياب.

وفي مجال آخر، عن أبي هريرة، رضي ا عنه، عن النبي ص قال: >اتقوا اللاعِنَين< أي سببي اللعن. قال : وما اللاعنان يارسول ا ؟ قال : >الذي يتخلى في طريق الناس أو في ظلهم< يقضي حاجته في طريق الناس أو في ظلهم. فهذا يكون عرضة للعن، والرسول ينهى عن ذلك ويأمر باتقاء ذلك.

قال الشوكاني: >والحديث يدل على تحريم التخلي في طرق الناس ظلهم لما فيه من أذية المسلمين بتنجيس من يمر به ونتنه واستقذاره<(3).

طبعاً هذا كله أنواع من إفساد المظاهر الجمالية وتبعاً لذلك إفساد للبيئة التي نعيش فيها ونمر بها. وفي ذلك كما يشير الشوكاني إفساد للسمع والبصر والشم وكافة حواس الإنسان بسبب مثل هذا التصرف الرديء.

وفي حديث آخر عن أبي داود وابن ماجه أضاف إلى الطريق والظل: >الموارد< حيث نهى أيضا عن التخلي في الموارد، والموارد هي المواضع التي يمر منها الماء.

وعن أبي هريرة رضي ا عنه قال رسول ا ص : >الإيمان بضع وسبعون ـ أو بِضع وستون ـ شعبةً. فأفضلها قول لا إله إلا ا ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبةٌ من الإيمان<(1).

والشاهد في الحديث هو أن من شعب الإيمان إماطة الأذى عن الطريق، طبعا كل هذا لأسبابٍ هي أن تكون بيئتنا وطرقنا نظيفة جميلة نقية محفوظة من العفونات والإذايات والنجاسات التي تفسدها وتشوهها.

وعن أنس أن رسول ا   ص قاقال: >البصاقُ في المسجد خطيئةٌ وكفارتها دفنها<(2) ففي هذا جمال المسجد والمحافظة على طهارته ونظافته، ومثل هذا السلوك حين ينْشَر ويربى الناس عليه يصبح سلوكا في المسجد وفي غير المسجد.

إذا كانت الأحاديث السابقة أكثرها يتعلق بالنظر والمرئيات، فهذه أيضا نصوص أخرى تنبه إلى أن للسمع نصيبه من الجمال الذي ينبغي أن يحفظ وأن البيئة المسموعة أيضا ينبغي صيانتها وتحسينها.

فقد وردت أحاديث كثيرة في تحسين الصوت وتزيينه عند قراءة القرآن الكريم، وهذا تشجيع وتنمية التحسين والتزيين في الأصوات ودليل على أن لجمال الأصوات قيمة وفائدة.

وفي التنفيـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـر مـ ـ ـ ـ ـ ـن الأصـ ـ ـ ـ ـوات القبيـ ـحة نـ ـ ـ ـ ـ ـجد قـ ـ ـ ـوله تعـ ـالى: { واغضض من صوتِك إن أنكر الأصواتِ لصوتُ الحمير} (سورة لقمان الآية 19).

وفي الحديث الصحيح عن النبي ص : >وإذا سمعتُم نهيقَ الحمير فتعوذوا با ِ فإنها رأت شيطاناً<.

فالحديث ينفر من الأصوات القبيحة والذميمة ويعلّمنا عمليا بالدعاء كيف ننفر من الأصوات القبيحة، وعكس ذلك كيف نأنس بالأصوات الهادئة والجميلة. ولايخفى أن من مظاهر تلوث البيئة تلوث المجال السمعي بالضجيج والأزيز وضياع نعمة الهدوء ورقة الأصوات.

وفي تربية حاسة الشم والحفاظ على جمالها أيضا نقرأ هذه الأحاديث؛ عن أبي هريرة، رضي ا   عنه، عن النبي ص أنه قال : >من عرض عليه طِيب فلا يرده فإنه خفيفُ المحمل طيب الرائحة< إذاً الرسول يحث على اقتناء الطيب واستعماله، ويربي الناس على طلب الروائح الطيبة، وطبعا إفساد البيئة اليوم يتمثل أيضا في الروائح الكريهة والنتنة وفي إفساد الهواء وتلويثه.

وعن أبي سعيد الخدري، رضي ا   عنه ، قال : قال رسول ا   ص :>غُسلُ الجمعةِ واجب على محتلم، والسواك، وأن يمس من الطيبِ ما يقدر عليه< إذا الإنسان حين يتطيب فإنه يتيح لنفسه ولغيره من الناس أيضا الروائح الطيبة، ويدفع عنه ماقد يكون فيه أو في الجو حوله من روائح خبيثة.

قال الشوكاني: وقد أورد مايدل على أن الطيب محبب إلى ا   تعالى فأخرج الترمذي عن ابن المسيب أنه كان يقول : >إن ا   تعالى طَيب يحب الطّيِّب، نظيف يحب النظافةَ، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أفنيتكم ولاتَشَبهوا باليهود<(1).

ثم بالإضافة إلى الأحاديث التي تشجع وتربي وتدرب حاسة الشم على الروائح الطيبة وابتغائها وطلبها، فإن هناك أحاديث كثيرة تنفر من الروائح الخبيثة. وحسبنا فيها حديث نهي من أكل ثوماً أو بصلاً وكان رائحته مازالت في فمه، نهيه أن يرتاد المسجد إلى حين زوال الرائحة.

هذه المظاهر والآداب التي لفت النظر إليها وحثّ عليها القرآن الكريم والسنة النبوية، ماعلاقتها بحفظ البيئة؟.

إن هذه الأحاديث والآيات التي تلفت نظرنا إلى الجوانب الجمالية وتحثّ على المحافظة عليها والتزامها في السلوك يمكن تصنيفها بتصنيف علماء مقاصد الشريعة ضمن دائرة التحسينيات. فالمصالح ـ كما هو معلوم عند أهل المقاصد وكما هو مشهور على الألسنة تقسم إلى ضروريات وحاجيات وتحسينيات، وكل ما ذكرته، وكل ما عليه مدار هذا الحديث إنما هو من باب التحسينيات. وإذا كان الشرع قد حثنا على إدراك هذه التحسينيات في أبسط وأدنى مظاهرها وهي المظاهر الجمالية الصرفةُ التي قد لايترتب عليها مباشرة أي فائدة أخرى، إذا كان الشرع قد حثّ على ذلك، فمن باب أولى نقول: إن من يحفظ هذه التحسينيات سيكون حافظا لما فوقها من باب أولى. هذه التحسينيات التي تنصب غالبا على الجانب الجمالي وعلى الجانب الذوقي، يقول الإمام الشاطبي في تعريفه لها:>وأما التحسينيات فمعناها الأخذ بما يليق من محاسن العادات وتجنّب الأحوال المدنسات، التي تأنفها العقول الراجحات...< ثم يمثّل لذلك فيقول :

>ففي العبادات: كإزالة النجاسات، وبالجملة الطهارات كلها، وأخذ الزينة والتقرب بنوافل الخيرات من الصدقات والقربات وأشباه ذلك، وفي العادات كآداب الأكل والشرب ومجانبة المآكل النجسات والمشارب المستخبثات، والإسراف والإقتار في المتناولات وفي المعاملات كالمنع من بيع النجاسات<(7).

فهذه التحسينيات التي حثّ عليها، وكثير منها نرى له صلة مباشرة بتدريب الناس وتعويدهم على المحافظة على كل ما في هذا الكون، إذا كان الشرع يوجه إلى حفظ هذه الدرجة الدنيا على وجه الخصوص، فإن حفظ ما هو أعلى يكون تلقائيا ويكون بدهياً ويكون من باب أولى. فمعلوم أن التحسينيات هي سياج لما فوقها من المصالح فهذا هو وجه اعتبار أن التربية الجمالية في الإسلام إنما هي حفظ للبيئة وصيانة للبيئة في أقصى الدرجات لأنه قد ننهى الناس عن أن يفسدوا الشيء ويتلفوه لكن حين نحثهم ونحملهم على أن يصونوا جماله وليس فقط وجوده ومصلحته، بل أن يحفظوا حتى جماله، فهذه أقصى درجات الحفظ، بل هذه أقصى درجات الحس المصلحي في الإسلام، وهو أن يكون الإنسان حافظا ليس للضروريات، وليس للحاجيات فحسب، بل أن يكون حافظاً حتى للجوانب التحسينية، فهذه أقصى وأبلغ درجات حفظ البيئة والمصالح كلها، والحمد رب العالمين.

الهوامش

(*) أستاذ بشعبة الدراسات الإسلامية كلية الآداب ـ جامعة محمد الخامس ـ الرباط.

(1) رواه مسلم في كتاب الإيمان، والإمام مالك في كتاب اللباس.

(2) المالك، كتاب اللباس.

(3) الاستذكار 26/163-164.

(4) نيل الأوطار 1/85.

(5) الحديث متفق عليه.

(6) الحديث متفق عليه.

(7) نيل الأوطار1/188.

إنما الدين النصيحة

بسم ا   الرحمن الرحيم

{ ولا تُفْسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قَريب من المحسنين. وهو الذي يرسلُ الرياح بشرا بين يدي رحمتهِ حتى إذا أقلتْ سحابا ثِقالا سقْناه لبلدٍ ميتٍ فأنزلنا به الماء فأخرجنا بهِ من كل الثـمراتِ كـذلك نُخرج الـمـوتى لعـلـكم تذكّـرون} صدق ا   العظيم (سورة الأعراف، الآيتان57-56).

الإنسان وعلاقته بالبيئة ـ رؤية إسلامية

د. فاروق حمادة (*)

الحمد   الذي بين لعباده نهج الصلاح، ووعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات الاستخلاف في الأرض وبلوغ النجاح، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد ا   إمام المهتدين، والداعي إلى مهيع السعادة، وطريق الفلاح، وعلى آله الطيبين، وصحابته الأخيار ذوي المناقب الصحاح.

أما بعد: فإن ا   تعالى سخّر للخليقة ظاهر السماوات والأرض ومكنوناتها، ويسر لعباده الانتفاع بما يستطيعونه ويحتاجونه من خيراتها، فالسماوات وما فيها، والأرض بأقطارها ومحيطاتها لخدمة الإنسان وجودا واستمراراً، منةً من ا   الكريم، قال تعالى : {ألَم تَروا أن الله سخّر لكم ما في السماواتِ وما في الأرض وأسبغَ عليكُم نِعمه ظاهرةً وباطنةً ومن الناسِ من يجادلُ في اللهِ بغير عِلْمٍ، ولاهدى ولاكتَاب منير} (سورة لقمان 20).

وقال تعالى : { وسخر لكم ما في السماواتِ وما في الأرضِ جميعاً منه إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون} (الجاثية 13).

ومعنى سخر لكم: أي لأجلكم، والتسخير بمعنى التذليل والتيسير، أو كما قال الراغب الأصبهاني، التسخير: سياقة إلى الغرض المختص قهراً.

وقوله تعالى: { ألَم تَروا} للناس جميعا على الأظهر.

وما في السماء من شموس وأقمار، ورياح وأمطار، وبروج وأفلاك تقوم بفوائد عرف الإنسان طرقاً في خدمة وجوده وتيسير حياته، واستمرار جنسه.

وقال تعالى : { الله الذي خلقَ السماواتِ والأرض، وأنزلَ من السماءِ ماء فأخرج به من الثمراتِ رزقاً لكم، وسخر لكُم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخّر لكم الأنهار، وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين وسخّر لكم الليلَ والنهار، وآتاكم من كلّ ما سألتموه وإن تَعدوا نعمةَ اللهِ لاتُحصوها إن الإنسان لظلوم كفار} (سورة إبراهيم 34-32).

وقال تعالى :{ وسخّر لكم الليل والنهار، والشمس والقمر، والنجوم مسخّراتٌ بأمرِهِ إن في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون، وماذرأ لكم من الأرض مختلفاً ألوانُه إن في ذلك لآية لقومٍ يذكرون، وهو الذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها، وترى الفُلْك مواخر فيهِ، ولتبتغوا من فضلِه ولعلكم تشكرون } (سورة النحل 14-12) في آيات عديدة تعدد هذه النعم، وتذكر العقلاء بها.

فالإنسان خلاصة هذا الكون ـ والكون كله القريب منه والبعيد على الإجمال ـ مسخر لراحته مهيأ لسعادته.

وارتبط الإنسان في هذا الكون بلازمتين، هما الزمان والمكان، ولكل واحدة في حياته شأن وأي شأن، أما الزمان فليس هذا مجال الحديث عنه، وأما المكان، فقد قدر ا تعالى أن تكون الأرض بنظامها قراره ومثواه، ومتقلبه ومحياه، ومآله بعد وفاته ومنتهاه، فهيئت على أحسن مايكون وسهلت، وقد فصل ذلك القرآن العظيم، قال تعالى: { ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين } (سورة الأعراف 24).

{ اللهُ الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بِناء...} (سورة غافر 64).

{ أَمن جعلَ الأرض قراراً وجعلَ خلالَها أنهاراً }(سورة النمل 61).

أي ذات قرار لكم، وعلى كيفية تلائم استقراركم.

ثم فصل الحق سبحانه وتعالى نعمه على الخليقة في تيسير الأرض فقال: { الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء } (سورة البقرة 22).

أي إنها كالفراش من التمكن من الاستقرار عليها.

{وهو الذي مد الأرض وجعلَ فيها رواسِي وأنهـ ـاراً} (سورة الرعد 3).

{ الذي جعلَ لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلا} (سورة طه 53).

والمهد هو ما يهيأُ للصبي الرضيع من فراش مريح، أي أن الأرض قد مهدت ووطئت للخليقة كما يوطأ الفراش للصبي.

{ والأرض مدْدنَاها وَأَلْقَينا فيها رواسِي وَأَنْبتْنَا فيها من كل زوجٍ بهيجٍ }(سورة ق 7).

{ والأرض مددنَاها وَأَلْقَينا فيها رواسِى وَأَنْبتْنا فيها من كل شيءٍ موزونٍ} (سورة الحِجر 19).

{ ألم نجعل الأرض كفاتاً، أحياء وأمواتاً، وجعلنا فيها رواسِي شامخاتٍ. وأسقيناكُم ماء فُراتا } (سورة المرسلات 27-25).

{ولقد مكناكُم في الأرضِ وجعلْنا لكم فيها معايشَ...} (سورة الأعراف 10).

والتمكين : هو الإقدار على التصرف في أمور الأرض ومخلوقاتها ليكون بذلك سيد هذا العالم بما أودع فيه، وبما يسر وذلل أمامه.

ولهذا فإن الحفاظ على ناموس هذا الكون، وقوانين هذه الأرض ومحيط الإنسان هو حفاظ على الإنسان واستمراره، وإن العبث بذلك هو خطر على الإنسان وإضرار به.

ولتجنب العبث والإضرار بالأرض وبيئة الإنسان، فقد وضعتِ الشريعة الإسلامية أساسين اثنين لذلك: الأول تحريم الفساد ومنعه بالضرب على أيدي المفسدين، والثاني : الإصلاح والترقية والتحسين لأساسيات البيئة الإنسانية.

أما المنع من الفساد في الأرض، فقد جاء ذلك في نصوص قطعية، وكليات شمولية من كليات الشريعة المطهرة ومبادئها، وتكرر قول ا تعالى في القرآن العظيم: { ولاتَعثَوا في الأرض مفْسدين } (سورة البقرة 60، والأعراف 74، وهود 85. والشعراء 183، والعنكبوت 36).

والعثو: هو الفساد في الأرض. أي لاتتجهوا إليه قاصدينه ممعنين فيه.

وقوله تعالى: { ولاتُفْسِدوا في الأرضِ بعد إصلاحِها } (سورة الأعراف 56).

إن الفرد، أو الجماعة إذا قامت بالفساد وتمادت فيه فإنها تستحق بذلك اللعنة الإلهية التي تظهر آثارها بأشكال شتى ـ قال تعالى: { فهل عسيتُم إن توليتم أن تُفْسدوا في الأرضِ وتقطعوا أرحامكُم، أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم } (سورة محمد الآية 22).

{ والذين ينْقُضون عهد اللهِ من بعدِ ميثاقهِ ويقطعون ما أمر اللّه بهِ أن يوصلَ ويفْسِدون في الأرضِ، أولئك لهم اللعنةُ ولهم سوء الدارِ} (سورة الرعد 25).

{ الذين ينقضون عهد اللهِ من بعدِ ميثاقهِ، ويقطعون ما أمر الله بهِ أن يوصلَ ويفْسِدون في الأرضِ، أولئك هم الخاسرون } (سورة البقرة 27).

{ الذين طَغَوا في البلادِ، فأكثروا فيها الفساد، فصب عليهم ربك سوطَ عذابٍ، إن ربكَ لبالمرصادِ} (سورة الفجر 14-12).

والفساد في دلالة القرآن والسنة، هو الخروج عن حد الاعتدال قليلاً كان الخروج أو كثيراً، وقد نص القرآن الكريم نصاً على أخطر أنواع الفساد، وحدده بأنه إهلاك الحرث والنسل، أي إهلاك النبات، والكائنات الحية، فقال عز وجل: { ومن النّاسِ من يعجبك قوله في الحياةِ الدنيا ويشهد الله على ما في قلبهِ وهو ألد الخصام، وإذا تولى سعى في الأرض ِليفسد فيها ويهلك الحرثَ والنسل وا لايحب الفساد} (سورة البقرة 204).

إن هلاك الحرث والنسل هو تدمير لمستقبل الإنسانية، ويتسع ويكبر بمقدار سعة التأثير، فهل هناك جريمة أعظم من هذا ؟.

لقد نص القرآن الكريم على أن قتل إنسان واحد كالإقدام على قتل الإنسانية جميعها، قال تعالى: { من قتلَ نفساً بغيرِ نفسٍ، أو فساد في الأرض فكأنما قتلَ الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا} (سورة المائدة 32).

وينَصّ الآية فإن الفساد في الأرض مثل قتل الناس جميعاً، وفي هذا حث وتحضيض لجميع الناس ليقفوا في وجه المفسدين في الأرض وملاحقتهم، والأخذ على أيديهم كل حسب موقعه وقدرته.

وقد نص القرآن العظيم على عقوبة المفسدين نصاً صريحاً لالُبس فيه، فقال عز من قائل : { إنما جزاء الذين يحاربون ا ورسوله ويسعون في الأرضِ فساداً أن يقَتلوا أو يصلبوا أو تُقَطع أيديهم وأرجلهم من خِلافٍ أو ينْفَوا من الأرض، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الاخرةِ عذاب عظيم } (سورة المائدة 33).

وتأكيدا لسد باب الفساد بالضرب على أيدي المفسدين من البشر، فإن الشريعة الإسلامية قد أمرت بقتل كل مفسد من الحيوانات والحشرات، فقد جاء في الحديث الشريف عن عائشة، رضي ا عنها، قالت : قال رسول ا ص : >خمس فواسقَ يقْتَلْن في الحِلّ والحرم: الحيةُ، والغراب الأبقع، والفأرة، والكلب العقور، والحديا<(1).

والحديا: تصغير الحدأة، والكلب العقور: هو كل حيوان مفترس يعدو على الناس فيعقرهم مثل الأسد، والفهد، والنمِر، والذئب.

وإن الناظر في مخاطر ومشاكل العالم المعاصر البيئية والصحية، يجد أن هذه الحشرات والقوارض الضارة منها، تهدِّد الإنسان وسلامته، وصحته، وغذاءه، وهي مستودعات للطاعون

والتيفوس الفأري، والأمراض الناتجة عن البكتيريا، زيادة على أمراض الحمى الصفراء، والملاريا وغيرها، مع استهلاكها لجزء غير قليل من الغذاء البشري، والتهام المحاصيل والمزروعات والمستودعات وغيرذلك.

فسد باب الفساد، وقطع دابره وبخاصة الفساد بالحرث والنسل والحياة عموماً من أي أحد كان، مطلب جليل، ومبدأ أصيل من مبادىء الشريعة الإسلامية.

وأما الأمر الثاني، وهو الإصلاح الدائم، والتحسين المستمر للمحيط الإنساني فهو كذلك من مقاصد الشريعة الإسلامية، بل من أهداف الرسالات السماوية جميعها، ودعوة القرآن الدائمة لجميع العقلاء. قال تعالى على لسان نَبِّيه شعيب: >إن أريد إلا الإصلاح ما استطعتُ وما توفيقي إلا با   عليه توكلت وإليه أنيب< (سورة هود 88).

وقال تعالى: {ولا تُفْسِدوا في الأرضِ بعد إصلاحها} (سورة الأعراف 56).

وقال أيضا عز من قائل: { ولاتفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكُم خير لكم إن كنتم مؤمنين } (سورة الأعراف 85).

والبعدية في قوله تعالى: { بعد إصلاحها} بعدية حقيقية، لأن الأرض خلقت من أول أمرها على صلاح، أي على نظام صالح بما تحتوي عليه، وبخاصة الإنسان الذي هو أشرف المخلوقات التي جعلها ا   على الأرض، وخلق له ما في الأرض، وعزز ذلك النظام بقوانين وضعها على ألسنة المرسلين والصالحين، والحكماء من عباده الذين أيدهم بالوحي والخطاب الإلهي، أو بالإلهام والتوفيق والحكمة فعلموا الناس كيف يستعملون ما في الأرض على نظام يحصل به الانتفاع بنفع النافع، وتجنب الضار فذلك النظام الأصلي، والقانون المعزز له كلاهما إصلاح في الأرض، لأن الأول إيجاد الشيء صالحاً، والثاني: جعل الضار صالحاً بالتهذيب بالإزالة.

والتصريح بالبعدية هنا تسجيل لفظاعة الإفساد بأنه إفساد لما هو حسن ونافع فلا معذرة لفاعله، ولامساغ لفعله عند أهل الأرض(1)

ولهذا فإن صنيع الإنسان المؤمن في هذه الحياة يتوخى دائماً الإصلاح والترقية، وتكرر كثيراً في النص القرآني: { الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ} بواسع معنى الصالحات في أكثر من ستين آية ليكون الصلاح والإصلاح متناسبا مع تقلب الأزمان، وبحسب وضعية المكان، وقد ضمن ا   أن لايضيع عمل المصلحين في زمانهم ومكانهم، وضمن تعالى أنه لايهلك الأمم الصالحة المصلحة، وهي التي ترمم ما فسد من أركانها، وما وهى من أطراف بنيانها، فمن عمل لدنياه وأصلح عمله ضمن ا   له استمرارها، ومن عمل لآخرته وأصلحها ضمن ا   له أجرها ومن عمل لهما معاً ـ وهي دعوة القرآن ـ أصلحهما ا   له، وضـمن له الاستـمرار

طالما بقي في خط الإصلاح المتتابع. قال تعالى: { إنا لا نضيع أجر المصلحين } (سورة الأعراف 170).

وقال تـعالى: { وما كان ربك ليهلك القُرى بظلمٍ وأهلها مصلِحون } (سورة هود117).

إن منع فساد البيئة والمحيط الإنساني، والعمل الحثيث الدؤوب على إصلاحه وتجميله، يأتي من رؤية إيمانية إسلامية، وينطلق منها، وأساس هذه الرؤية أن الإنسان جزء منه، فا خلق الإنسان من الأرض {منها خلقناكُم وفيها نُعيدكم ومنها نُخرجكم تارةً أُخرى } (سورة طه 55)، فهي أمنا التي تضمنا، وننجذب إليها بتكويننا وفطرتنا، ونعتمد عليها في بقائنا واستمرارنا، ولهذا جاءت نصوص الشريعة الإسلامية في السنة النبوية وغيرها لتؤكد على تفاعل الإنسان مع الكون والتآلف معه، فمظاهر الطبيعة من أنهار وأشجار، وجبال ووديان، وآفاق وأبراج، ورياح وفجاج وغيرها بيننا وبينها عقد ألفة ومحبة، واستخدام وتسخير لما خلق الإنسان من أجله.

فإذا رفع المسلم رأسه إلى السماء، ورأى سعة أقطارها، وتباعد أنحائها، وسعة آفاقها، وحركات أفلاكها وتتابع ليلها ونهارها وتقلب فصولها وأحوالها، قال : اللهم يا مصرف القلوب ثبت قلبي على دينك.

وإذا رأى إطلالة الهلال في الأفق قال : اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان، والسلامة والإسلام، هلال خير ورشد، ربي وربك ا .

وإذا أصبح وأمسى قال : اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان.

وإذا أقبل الليل وأدبر النهار قال : اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعاتك فاغفرلي.

اللهم إني أسألك خير هذه الليلة، وأعوذ بك من شر هذه الليلة وشر ما بعدها، اللهم إني أعوذ بك من الكسل.

وإذا أصبح قال: أصبحنا وأصبح الملك ، والحمد لاشريك له لا إله إلا هو وإليه النشور.

اللهم إني أسألك خير هذا اليوم، فتحه ونصره، ونوره، وبركته وهداه، وأعوذ بك من شر ما فيه، وشر ما بعده.

وإذا ضرب في فجاج الأرض مسافرا واستوى على مركوبه قال : سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم إنا نسألك في مسيرنا هذا البر والتقوى ومن

العمل ما ترضى، اللهم هون علينا السفر واطوعنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل، أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر وسوء المنقلب في المال والأهل والولد.

وإذا ضمه الليل قال يخاطب الأرض التي يحط بها رحاله: يا أرض ربي وربك ا ، أعوذ با من شرك وشر ما فيك، وشر ما خلق فيك، وشر مايدب عليك، أعوذ با من أسد وأسود، ومن الحية والعقرب، ومن ساكن البلد، ومن والد وما ولد.

وإذا هاجت الريح واشتدت قال : اللهم إنا نسألك خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما ُأرسِلَتْ به، ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما ُأرسِلَتْ به.

وإذا رأى السحاب، مقبلا قال: اللهم اجعله صيب رحمة، ولا تجعله صيب عذاب، اللهم إنا نعوذ بك من شر ما ُأرسل به.

وإذا رأى قرية أو مدينة يريد دخولها قال حين يراها: اللهم رب السماوات السبع وما أظللن ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما َأضلَلْن، ورب الرياح وما ذَرين، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها، وخير ما فيها ونعوذ بك من شر أهلها وشر ما فيها.

وإذا تناول ثمرة من الثمار لأول مرة قال: اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعِنا، وبارك لنا في مدِّنا، ويدعو أصغر وليد يراه فيعطيه الثمرة (1) وإذا تناول طعاما، وإذا شرب شرابا، وإذا أوى إلى فراشه... وإذا وإذا...إنه تفاعل مع الأرض والبيئة والكون.

وبهذا وغيره يتأكد لنا أن للمسلم في كل نظرة للكون موقف، وفي كل موقف كلمة من الحكمة التي تلقاها من القرآن والسنة تجعله متآلفا متناسقا مع الأرجاء الفسيحة والآفاق الواسعة للأرض والحياة.

وقد أمر القرآن الكريم الناس جميعاً بالتأمل في الأرض وفجاجها، والحياة ومساربها للاستفادة منها والتفاعل معها وإدراك جمالها وكمالِها للمحافظة عليه والاستفادة منه، قال تعالى: { إن في خلق السماواتِ والأرضِ واختلافِ الليل والنهارِ لآياتٍ لأولي الألباب} (سورة آل عمران 190).

{ تبارك الذي جعلَ في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً، وهو الذي جعل الليل والنهار خِلْفةً لمن أراد أن يذكر أو أراد شُكوراً} (سورة الفرقان 62-61).

{ وهو الذي أنزلَ من السماء ماء فأخرجنا بِهِ نبات كل شيءٍ، فأخرجنا مِنه خَضِرا نُخرج منه حباً متراكباً، ومن النخل من طَلْعها قنوان دانِيةٌ، وجناتٍ من أعنابٍ والزيتون والرمان مشْتَبِهاً

وغير متشابهٍ، انظروا إلى ثمرهِ إذا أثمر وينْعِه إن في ذالكم لآياتٍ لقوم يؤمنون } (سورة الأنعام 99).

{ قل سيروا في الأرض، فانظروا كيف بدأ الخلقَ، ثم اللُه ينْشىء النشأةَ الآخِرةَ } (سورة العنكبوت 20). { ولقد جعلْنا في السماءِ بروجاً وزينّاها للناظرين } (سورة الحِجر 16) .

{ فَلْينظر الإنسان إلى طعامهِ أَنا صببنا الماء صبا، ثم شَقَقْنا الأرض شَقّاً، فأنبتْنا فيها حبا، وعنبا وقَضباً، وزيتوناً ونَخْلا، وحدائقَ غُلْبا، وفاكهةً وأبا، متاعاً لكم ولأنعامِكُم } (سورة عبس32-24).

{ أَو لم ينظروا في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ، وما خلقَ الله من شيء} (سورة الأعراف 185).

{ فانظر إلى آثار رحمةِ اللهِ كيف يحيى الأرض بعد موتِها } (سورة الروم 50).

وفي آيات كثيرة يقول الحق سبحانه وتعالى فيها : { قل سيروا في الأرض فانظروا} { أَو لم يسيروا في الأرضِ فينظروا}.

وعلى ضوء هذه التوجيهات القرآنية نقل الإنسان المسلم إلى ميدان الواقع وربطه بالمحيط المادي من حوله، فقد أطل ذات مرة على جبل أُحدٍ، وهو عائد من سفر ورأى المدينة المنورة بين يديه فقال : >هذه طابة، وهذا أُحد جبل يحبنا ونحبه<. وطابة " بيوت وأحجار وأشجار، وأحد رمال وصخور، ولكن علاقة الحب والألفة متبادلة بينها وبين الإنسان المسلم كنموذج للأشياء المحيطة به.

وربط رسول ا ص التشابه بين الإنسان وأشجار الأرض، وجعل أفضل الأشجار نفعا مثالاً للمسلم لأنفع العطاء، قال ابن عمر، رضي ا عنه: >كنا عند النبي ص ذات يوم فأتي بجمار فقال: إن من الشجرة شجرة لايسقط ورقها، وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي ؟ فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد ا : ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت، فقالوا: حدثنا ما هي يارسول ا ؟ قال: هي النخلة<(1).

والنخلة كلها نفع ولا تؤذي نباتا آخر، مع قناعتها وعيشها على القليل، وجمالها، وكذلك المسلم.

والتفت رسول ا ص إلى أصحابه ذات مرة وقال لهم وهم منصتون، >أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل كل يوم منه خمس مرات، أيبقي ذلك من درنِهِ شيئا؟ قالوا : لا ... < الحديث.

وقد جعل رسول ا ص العلاقة القائمة والتشابه المكين بين وحي السماء الذي أنزل على قلبه، وبين واقع الأرض وما فيها، منطلقا لوعي المحيط وإدراك آثاره وأهميته، فقال عليه الصلاة والسلام:>مثل ما بعثني ا به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فكان منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع ا بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا. وأصاب طائفة منها أخرى، إنما هي قيعان، لاتمسك ماء، ولا تُنْبِتُ كلأ... الحديث<(2).

وإن علاقة المسلم بالأرض والبيئة والحياة ليست مقصورة على جانب منها، أو محدودة بطرف من أطرافها بل تشمل الأرض والكون كله، لأنها في تصوره ، وهو عبد >الأرض يورثها من يشاء من عباده، والعاقبةُ للمتقين< ويخاطبها بقوله:>ياأرض ربي وربك ا <.

والأرض كلها قاصيها ودانيها في شرعة الإسلام هي طهور للمسلم ومسجد له، كما جاء ذلك في الحديث الشريف،>وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً<(1). ولهذا فمشاعر المسلم فياضة تجاه أهل الأرض جميعا طبقا لما جاء في الحديث الشريف. >ارحموا من في الأرضِ يرحمكم َمن في السماء<(2) هذا المسجد الواسع في تصور المسلم وعقيدته وشريعته، يتقلب في فجاجه، ويسير في رحابه مزيلا للأذى، منحياً للمخاطر عن طريق بني الإنسان جميعاً، زارعاً للخير، عاملا في كل ميدان يعود بالحفاظ على الأحياء والحياة.

وسأتناول جانبا من علاقة الإنسان بالبيئة والمحيط من خلال النصوص النبوية في جانب إزالة الأذى والخطر، وجانب تثبيت النفع وتوسيع دائرة الصلاح.

فإضافة لما تقدم من الإجمال في حسم مادة الفساد، والضرب على أيدي المفسدين فقد وجهنا رسول ا ص إلى نماذج تحتذى أصبح لها في حياتنا المعاصرة وسيبقى لها كما كان من الدوام كبير الخطر، وواسع الأثر.

فعن أبي هريرة قال رسول ا ص : >الإيمان بِضع وستون، أو بِضع وسبعون شعبة فأعلاها قول : لاإله إلا ا ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق<(3).

والمراد بالأذى : كل ما يؤذي المار من الحجر والشجر والعظم، والقمامة والروائح الكريهة والعظم والنجاسة، وغيرها.

وعن أبي ذر، قال رسول ص:>عرضتْ علي أعمال أمتي حسنها وسيئها فوجدت من محاسن أعمالها الأذى يماطُ عن الطريق، ووجدت من مساوىء أعمالها النخامة تكون في المسجد لاتدفن<(1).

وعن أبي برزة، رضي ا عنه، قال: قلت: يانبي ا لا أدري نفسي تمضي أو أبقى بعدك، فزودني شيئاً ينفعني ا به، فقال رسول ا ص: >افعل كذا، افعل كذا، وأمر الأذى عن الطريق<. وفي رواية: اعزل الأذى عن طريق المسلمين(2)

وعن أبي هريرة قال رسول ا ص : >كل سلامى ـ أي مفصل ـ من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس...إلى أن قال: ويميط الأذى عن الطريق صدقة<(3).

وفي حديث ابن عباس ابن عم رسول ا ص: >.. وإنحاؤك الأذى عن الطريق صلاةٌ...<(4).

وفي حديث أبي ذر عن رسول ا ص : >... وإماطَتُك الحجر والشوكةَ والعظَم عن طريق الناس صدقةٌ<(5).

وعن أبي هريرة، رضي ا عنه، قال رسول ا ص : >بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك فأخره، فشكر ا له فغفر ا له<(6).

وفي رواية: >لقد رأيت رجلا يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين< (1).

وفي رواية: >مر رجل بغصن شجرة على ظهر الطريق، فقال: وا لأنحين هذا عن المسلمين لا يؤذيهم، فأدخل الجنة<.

وكما رغب وحث على عزل الأذى عن طريق الناس وحياتهم بصفة عامة، فإنه خص مواطن بالذكر لها مساس بحياة الناس، والأذى فيها يتضاعف أثره، ويعم ضرره، ففي الحديث أن رسول ا ص قال:>اتقوا اللاعنَين، قالوا: وما اللاعنان يارسولَ الله؟ قال: الذي يتخلى في طريق الناس، أو في ظلهمَ<(2).

وفي حديث آخر، قال رسول ا ص: >اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظّل<(3).

والبـ ـ ـ ـ ـراز: كناية عن الغائط، وأصله الفضاء الواسع.

والموارد: أمكنة ورود الناس.

والملاعن: أي التي تجلب اللعن.

ومن ذلك النهي الشديد عن تلويث المياه المستعملة، وبخاصة في الشرب، ولذلك صح في الحديث عن رسول اللهص من رواية جابر بن عبد ا ، >أنه نهى أن يبال في الماء الراكد<(4).

وفي رواية: >نهى رسول ا ص أن يبال في الماء الجاري<(5).

إن الذي يتحرز ويتحرج من هذا القليل لهو أشد تحرزاً وبعداً مما هو أخطر على الحياة كنفايات المعامل السامة، أو الآثار الضارة مهما كان نوعها، وأنّى كان مصدرها.

إن الإسلام أراد تطهير الوجود، وخص بالمبالغة في الطهارة البيوت والتجمعات السكانية، ولهذا جاء في الحديث الشريف الأمر بتنظيف المساجد، وأن تطيب وتطهر. فعن عائشة، رضي ا عنها،أن رسول ا ص >أمر ببناء المساجد في الدور، وأن تطيب وتنظف<(1).

ومن حديث سمرةَ بن جنْدبٍ قال:(كان رسولُ اللهِ ص يأمرنا أن نصنعها في دورنا ونصلح صنعتها ونطهرها)(2).

وقوله في الدور: أي في المكان الذي تجتمع فيه الدور، أي في التجمعات السكانية.

وجاء من حديث سعد بن أبي وقاص عن رسول ا ص قال: >إن ا طيِّب يحب الطيب، نظيفٌ يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظّفوا أفنيتكم ولاتشبهوا باليهود<(3).

وقال الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري لأهل البصرة حين قدمها والياً عليها من قبل عمر بن الخطاب: >بعثني إليكم عمر بن الخطاب أعلمكم كتاب ربكم، وسنة نبيكم، وأنظف طرقكم<(4).

وأمر بذوي الروائح الكريهة أن يبعدوا عن التجمعات العامة، وإن حضروا أن يخرجوا، ولو كان ذلك في المسجد، ومثل ذلك كل ذي عاهة تؤذي بريحها أو منظرها أو انتشارها وما ذلك إلا حرص على جمالية الحياة، وطهارتها وسلامة الناس من كل ضرر وأذى.

وأما جانب توسيع دائرة الصلاح والخير العام منظراً وأثرا، فقد شرع الإسلام إحياء الأرض الموات ـ أي المهملة ـ وشجع على ذلك، وجعلها ملكا لمن يحولها إلى أرض معطاء نافعة. ففي الحديث عن السيدة عائشة، رضي ا عنها قالت: قال رسول ا ص : >من أعمر أرضا ليست لأحد فهو أحق بها<(1).

وعن جابر بن عبد ا ، قال رسول ا ص: >من أحيا أرضا ميتةً فهي له<(2).

ومن عطل أرضاً صالحة للإنتاج وقابلة للعطاء مدة لايقبلها العقلاء بعرف زمانه ومكانه، فجاء غيره وعمرها وأحياها فهي له، فقد كتب عمر ابن الخطاب إلى ولاته في الأمصار: >من عطل أرضاً ثلاثَ سنين لم يعمرها، فجاء غيره فعمرها فهي له<.

وخرج رجل من أهل البصرة إلى عمر فقال: إن بأرض البصرة أرضاً لا تضر بأحد من المسلمين، وليست بأرض خراج، فإن شئت أن تقطعنيها، َأتخذها قضباً وزيتونا، فكتب عمر إلى أبي موسى واليه على البصرة: إن كانت كذلك فأقطعها إياه(3).

والقضب: هي البقول، وما يؤكل رطبا.

وجاءت النصوص النبوية في الحث على الزرع والغرس لكل نافع ومفيد من المزروعات والمغروسات، فعن أنس بن مالك، قال رسول ا ص: >ما من مسلم يغرس غرسا، أويزرع زرعاً، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له صدقة<(4).

وعن جابر بن عبد ا أن النبي ص دخل على أم معبد، أو أم مبشّر الأنصارية في نخل لهما، فقال: >لايغرس مسلم غرساً، ولايزرع زرعاً، فيأكل منه إنسان ولادابة ولاطائر ولاشيء إلا كانت له صدقة<(1).

وفي حديث أخر قال: >من نصب شجرة فصبر على حفظها والقيام عليها حتى تثمر كان له في كل شيء يصاب من ثمرها صدقة<(2).

والأحاديث النبوية في هذا الباب كثيرة جداً، ويبلغ حض الإسلام على الزراعة وتوسيع دائرتها حين يقول رسول ا ص:>إذا قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لايقوم حتى يغرسها فليفعل< وفي رواية: >إذا قامت على أحدكم القيامة وفي يده فسيلة فليغرسها<(3).

وأما ما يتعلق بالماء وهو من أهم المشكلات الإنسانية المعاصرة، فإن للماء موقعا خاصاً من حياة المسلم، فهو نعمةٌ عظمى خلق ا الكائنات منها { وا خلق كل دابة من ماء}(سورة النور45).

وهو قوام الحياة {وجعلنـا من الماءِ كل شيءٍ حي أفلا يؤْمنون} (سورة الأنبياء 30).

{وهو الذي أنزلَ من السماءِ ماء فأخرجنا به نبات كلّ شيءٍ} (سورة الأنعام 99).

وهو طهور مطهر{ وأنزلنا من السماء ماء طهوراً} (سورة الفرقان 48).

فهذه النعمة العظمى تستحق الشكر بالمحافظة عليها، وعدم الإسراف في استعمالها، وإذا كان الاقتصاد، وعدم الإسراف مبدأً عاماً وأصيلاً في الشريعة الإسلامية، فإن النص قد جاء على عدم الإسراف في الماء والطعام قال تعالى: { وكُلوا واشربوا ولاتُسرفوا} (سورة الأعراف 31).

ومر رسول ا ص بسعد بن أبي وقاص، وهو يتوضأ فقال: >ما هذا السرف؟ فقال: أفي الوضوء إسراف؟ قال: نعم، وإن كنت على نهر جار<(1).

ورأى رسول ا ص رجلا يتوضأ فقال:>لاتسرفْ، لاتسرف<(2).

ومن توجيهات القرآن والسنة كان الصحابة والتابعون يعلمون الأجيال ويقولون:>من الوضوء إسرافٌ، ولو كنت على شاطىء نهر<(3).

فالاقتصاد في الماء والحفاظ عليه من المبادىء الإسلامية الكبرى في التعامل مع البيئة، والعلاقة معها، ثم بعد ذلك بذله لمحتاجه، وبخاصة إذا توقفت حياته عليه كما هي الحال في بعض البلدان الإفريقية، وفي الحديث الشريف:>ثلاثة لايكلمهم ا يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، رجل حلف على سلعة: لقد ُأعطي بها أكثر مما ُأعطي وهو كاذب، ورجل حلف على يمين كاذبةً بعد العصر ليقتطع بها مال امرىٍء مسلم، ورجل منع فضل مائه<.

فيقول ا تعالى: { اليوم أمنعك فضلي كما منعت ما لم تعمل يداك}(1).

وعن أنس بن مالك، رضي ا عنه، أن سعد بن عبادة أتى النبي ص فقال: >يارسول ا أن أمي توفيتْ، ولم توصِ أفينفعها أن أتصدق عنها: قال: >نعم، وعليك بالماء<(2).

وعن سعد نفسه قال: قلت: >يارسول ا إن أمي ماتت، وأي الصدقة أفضل؟ قال: الماء، فحفر بئراً، وقال هذه لأم سعد<(3).

وعن البراء بن عازب قال: جاء أعرابي إلى رسول ا ص فقال: يارسول ا علمني عملا يدخلني الجنة، قال: >إن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة، أعتق النسمة وفك الرقبة، فإن لم تطق ذلك فأطعم الجائع، واسق الظمآن<(4).

بل إن سقي الماء في التشريع الإسلامي يتعدى الإنسان إلى كل ذي كبد رطبة من البهائم والحيوانات، ففي صحيح الحديث أن رسول ا ص قال:>بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه الحر فوجد بئرا، فنزل فيها فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقي، فسقى الكلب فشكر ا له فغفر له، فقالوا: يارسول ا ، إن لنا في البهائم أجراً؟ فقال في كل كبدٍ رطبة أجر<(5).

وقال سراقة بن جعشم: يارسول ا الضالة ترد على حوضي فهل لي فيها من أجر إن سقيتها؟ قال:>اسقها، فإن في كل ذات كبد حراء أجراً<(1) .

ومثله عن عبد ا بن عمر(2).

وفي الحديث القدسي: >إن ا عز وجل يقول: يابن آدم مرضتُ فلم تعدني، قال: يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين...يابن آدم استسقيتك فلم تسقني، قال: يارب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ استسقاك عبدي فلان فلم تسقه،أما إنك لوأسقيته لوجدت ذلك عندي..<(3).

وإن حفر الآبار، وشق الأنهار، وإيصال الماء إلى العطاش المحرومين لمن أعظم القربات عند ا ، وأفضل المبرات التي تلحق المؤمن آثارها في حياته، وبعد مماته وتزيد في حسناته أو تحط من سيئاته.

فعن أبي هريرة، قال رسول ا ص: >إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علما عِلِمه ونَشَره، وولدا صالحاً تركه، أو مصحفاً ورثه، أو مسجداً بناه، أو بيتا لابن السبيل بناه، أو نهرا أجراه، أوصدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته<(4).

وفي نصوص نبوية كثيرة جعلت الشريعة الإسلامية الناس شركاء في أساسيات الحياة وعلى رأسها الماء، فعن رجل من الصحابة من المهاجرين قال: غزوت مع رسول ا ص ثلاثاً أسمعه يقول:>الناس شركاء في ثلاث: الكلأ، والماء والنار<(5).

وعن بهية عن أبيها قال: قلت:>يانَبِي ا ، ما الشيء الذي لا يحل منعه؟ قال : الماء<(6).

فالمياه الجارية التي لادخل للبشر في صنعتها لايحل منعها ولاقطعها عمن هي ضرورية لحياته بل لحياة شعوب بكاملها.

إن المشكلة البيئية اليوم في العالم مشكلة صعبة ومتفاقمة، تتداخل في سلسلة من المشاكل الصغرى والكبرى من اجتثات للغايات، وتقلص مساحة المزروعات ـ التصحر ـ وتلوث المياه المشروبة والمستعملة بسوائل الصناعات، واختلال الريح وطبقات الجو بتأثير تصاعد الغازات، وإلقاء الإنسان العابث مايصنعه من القاذورات ويعود ذلك في أساسه وقاعدته إلى خروج الإنسان عن جادة الصواب في علاقته بالبيئة، وسوء تعامله معها، إما بتدميره المباشر، وإما بتقاعسه عن الضرب على أيدي الجناة العابثين في مصائر بني البشر، وهذا كله خلاف تعاليم القرآن وتشريع الإسلام التي قدمت طرفا وإضاءة منها، فكيف يعقل اليوم أو يقبل أن يقتل فرد إذا قتل فرداً، أو يسجن أو يهان، ونفايات مصانع ومعامل من السوائل والغازات والمتفجرات تهلك الحرث والنسل، وتفسد البحر والبر والجو، وتزهق الأرواح غير محصورة العدد ويمر

المتسببون بذلك بسلام آمنين؟ وفي شرعة الإسلام لو أن أهل صنعاء تمالؤا على قتل رجل لقتلوا به، واليوم واحد يقضي على مستقبل أجيال، ولايؤاخذ؟!!.

إن علماء الصحة يقررون اليوم أن كثيرا من الفيروسات الخطيرة قد أيقظها الإنسان بفعله في الطبيعة، وقرروا كذلك أن الأوبئة

(Les Epidémies) لا تظهر فجأة وإنما تظهر دائما بعد انقلاب بيئي.

إن الأمة الإسلامية يجب أن تسري فيها من جديد معاني مفاهيم الفساد لتعرف المفسدين فتضرب على أيديهم، ومفاهيم الصلاح والبناء لتنطلق مصلحة بانية، وتعيد إلى الأجيال كيفية التعامل مع الكون والتفاعل معه ليصلح المحيط وتنتعش البيئة نقية سليمة. هذه المفاهيم الإسلامية عندما كانت تسري في الأمة كانت مثالا في نشر الخضرة والنضرة في الأرض وتوزيع المياه وإيصالها إلى الأماكن النائية المحتاجة إليها، وكانت المدن الإسلامية والممالك الإسلامية تتنافس في هذا، قال ابن حوقل: لم أر ولم أسمع في الإسلام بظاهر بلد أحسن من ظاهر بلد بخارى، لأنك إذا علوت مرتفعاتها لم يقع بصرك من جميع النواحي إلا على مغارس تتصل خضرتها بلون السماء، وكأن السماء مكبة زرقاء على بساط أخضر تلوح القصور مابين ذلك كالتراس اللمطية، أو كالكواكب العلوية بياضا ونوراً من أراضي ضياع مقومة بالاستواء كوجه المرأة(1).

وكان هذا نتيجة تشبع الناس بمفاهيم الآلفة والمحبة للكون كما بينها القرآن والسنة، فهل من عود حميد إلى ماض مجيد لبناء مستقبل طاهر رغيد سعيد؟! نرجو ا أن يكون ذلك.

الهوامش :

(*) رئيس شعبة الدراسات الإسلامية ـ كلية الآداب ـ جامعة محمد الخامس ـ الرباط.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه: الصيد 4/34، ومسلم في صحيحه رقم 1198، والنسائي5/188، وابن ماجه 3087. وجاء في حديث عبد ا بن عمر بن الخطاب في الصحاح وغيرها، انظر البخاري 4/34.

(2) الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير 8/174.

(3) نصوص لبعض الأحاديث النبوية.

(4) فتح الباري 1/145.

(5) البخارى1/175 ومسلم رقم 2282.

(6) أخرجه البخاري.

(7) أخرجه أبوداود في سننه رقم 4941.

(8) أخرجه البخاري ومسلم.

(9) مسلم رقم 2618 / وابن ماجه.

(10) مسلم في صحيحه رقم 57.

(11) أخرجه البخاري ومسلم.

(12) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه.

(13) أخرجه البيهقي.

(14) أخرجه البخاري ومسلم.

(15) أخرجه مسلم.

(16) أخرجه مسلم.

(17) أخرجه أبوداود وابن ماجه.

(18) أخرجه مسلم والنسائي، وابن ماجه.

(19) أخرجه الطبراني في الأوسط بإسناد جيد.

(20)أخرجه أحمد، وأبوداود، والترمذي وابن خزيمة، وابن حبان وغيرهم.

(21) أخرجه أبوداود، والترمذي.

(22) أخرجه الترمذي في سننه، الأداب، باب ماجاء في النظافة.

(23) الدارمس، السنن رقم 566.

(24) أخرجه البخاري في صحيحه.

(25) أخرجه أصحاب السنن، وحسنه الترمذي.

(26) فتح الباري 5/20.

(27) أخرجه البخاري ومسلم.

(28) أخرجه مسلم.

(29) أحمد 3/376.

(30) أخرجه أحمد في المسند 191/-3/184، والبزار، ورجال ثقات.

(31) أحمد في المسند 22112، وابن ماجه رقم 425.

(32) أخرجه ابن ماجه رقم 424.

(33) فتح الباري 1/234.

(34) البخاري 5/43، ومسلم 1/103.

(35) الطبراني في الأوسط ورواته محتج بهم في الصحيح، كما في الترغيب 2/73.

(36) أبوداود وابن وابن ماجه وابن خزيمة والحاكم وابن حبان.

(37) أحمد وابن حبان في صحيحه والبيهقي.

(38) مالك والبخاري ومسلم، وغيرهم.

(39) ابن حبان في صحيحه.

(40)أحمد ورواته ثقات مشهورون.

(41) مسلم في صحيحه.

(42) ابن ماجه بإسناد حسن، والبيهقي، ونحوه عند ابن خزيمة في صحيحه.

(43) أحمد وأبودواد ورجاله ثقات.

(44) أبوداود ومثله عن عائشة، رضي ا عنها، عند ابن ماجه وكذلك عنده عن ابن عباس.

(45) أنور الرفاعي، النظم الإسلامية ط دار الفكر ص 245.

ومن أعمالكم سلط عليكم

بسم ا الرحمن الرحيم

{ ما أصابك من حسنةٍ فمن الله وما أصابك من سيئةٍ فمن نفسِك وأرسلناك للناسِ رسولاً وكفى باللهِ شهيداً، من يطعِ الرسولَ فقد أطاع الله ومن تولى فَما أرسلناكَ عليهم حفيظاً} (سورة النساء الآيتان 79 - 80).

{ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمةً أنعمها على قومٍ حتى يغيروا ما بأنفسِهم وأن ا سميع عليم} صدق ا العظيم(سورة الأنفال، الآية 53).

إن ا سبحانه وتعالى يبادر الناس بالنعم، ولا تفسد نعم ا في الأرض أو تقل بركتها إلا بأفعال الناس، تلك الأفعال التي تتمثل في الانحراف عن الشرع الإلهي وعصيان الأوامر السماوية.

وسنرى متى وكيف تنبه الإنسان إلى فساد البيئة من حوله نتيجة رعونته وإسرافه في التعامل مع الطبيعة.

الأزمة البيئية المعاصرة وخلفياتها الثقافية

د. أحمد القدميري : أستاذ بالمعهد الزراعي بالرباط.

1. تحديد المفاهيم والمنطلقات :

يقصد بالبيئة الوسط أو المجال أو المحيط. في وقتنا الراهن عندما نتحدث عن البيئة يتبادر إلى أذهاننا بصفة آلية الوسط الطبيعي أو علم البيئة « Ecologie ». لقد برز هذا المصطلح >Ecologie< في العالم الغربي بمفهومه العلمي ابتداء من سنة 1873 من طرف المفكر الألماني >Haeckel< وكان المقصود من وراء هذا المجال دراسة الوسط الذي تعيش فيه الكائنات الحية، وتتناسل فيه مع ضبط العلاقات الموجودة بين هذه الكائنات ومحيطها الطبيعي. ولكن مع التقدم العلمي تحولت هذه النظرة الضيقة لتشمل الإنسان والوسط، وصار علم البيئة يهتم بدراسة الأنظمة الإحيائية الوظيفية. وهنا لابد من طرح السؤال لماذا علم البيئة « Ecologie » ؟.

إن الخلفيات الفكرية والثقافية الغربية التي كانت وراء بلورة هذا العلم يمكن أن نوجزها في المجالات التالية :

أ) الموروث الثقافي اليوناني ـ الإغريقي :

يمكن تلخيص هذه النظرة في التصور العِدائي القائم بين الإنسان والطبيعة والصراع الدائم بينهما. ومن خلال هذا المعتقد نما في العقلية الغربية هاجس قهر الطبيعة وترويضها من أجل الانتفاع بخيراتها دون أن يأبه لما يمكن أن يترتب عن هذا الفعل من آثار سلبية.

ب) الانفجار الديمغرافي لساكنة العالم :

برز هذا الهوس في أواخر القرن الثامن عشر مع القس البروتستانتي « Malthus » سنة 1798 حيث إنه طرح نظريته القائلة بأن الساكنة تنمو على شكل تصاعد هندسي « Progression géométrique »32,16,8,4,2 ... مما سيؤدي إلى تضاعف الساكنة العالمية كل 25 سنة، وسينتج عن هذا تفاقم وتقلص في الموارد الطبيعية (النباتية بالأخص) التي تنمو حسب زعمه على شكل تصاعد حسابي « Progression arithmétique ».

ج) النهب الكلي أو الجزئي لرأسمال الإنتاج :

وهذا النهب يمكن أن نوجزه في الاستغلال الفاحش للثروات الطبيعية الذي أدى حتما إلى بروز مظاهر مأسوية مثل انجراف التربة، وانقراض بعض الأصناف الحيوانية أو النباتية، وتدهور الغطاء الغابوي، واستنزاف الموارد البحرية من أسماك وطحالب، إلخ... .

كل هذه المعطيات يصعب في بعض الحالات تقييم الحصيلة الحقيقية لها، ونسرد على سبيل المثال الكوارث المفجعة التالية « La Tennessy Valley » و« Middle West » الولايات المتحدة الأمريكية، ووعنة « Latérite » الأراضي بمدغشقر وانجراف التربة بمنطقة الريف المغربي، إلخ ... كما أن الاستعمال الجائر لمبيدات الحشرات والنباتات يترتب عنه الإتلاف غير » المعقلن » للموارد الطبيعية وبالأخص الأراضي الزراعية.

د) الانفجار التكنولوجي والصناعي :

والذي يشكل المصدر الهائل للنفايات المضرة والسامة للحياة. لقد أصبح هذا المشكل معضلة القرن على مستوى الغلاف الحيوي والمتمثل أساساً في التلوث بشتى أنواعه وأشكاله.

هـ) التجمعات السكنية البشرية:

كل القرائن التاريخية والحضرية تدل بأن الساكنة البشرية تتجمع بكثافة عالية في الوسط الحضري، مما سيؤدي حتما إلى عدة مشكلات، اقتصادية، واجتماعية، ونفسية، بيئية، إلخ...

وهذه المعضلات تعرف تفاقما كبيراً في البلدان الفقيرة وبالأخص في حواضرها غير المهيأة لتلبية الحاجيات البشرية التي تليق بالعيش الكريم.

و) ظهور بوادر فلسفية جديدة وبشكل تدريجي:

وهي مبنية على كون الإنسان هو مستخلف على وجه الأرض من أجل استغلال الموارد الطبيعية وهو مسؤول أمام البشرية.

ومن خلال هذه النظرة أو التحول الجديد في الفكر الغربي برز في الظرفية المندفعة للتنمية الاقتصادية ما بين سنة 1970-60 مفهوم المحيط « Environnement » الذي صار طاغيا على كل المجالات الإعلامية والسياسية. وفي الساعة الراهنة، التصق مفهوم المحيط بمجالات عديدة هي :

- اندثار الغلاف الجوي « Dégradation atmosphérique » ومشكلة التساقطات الحمضية «acide Pluie ».

- الغاز الفحمي وآثار البيت الزجاجي « Effet de serre ».

- ثقب الأوزون « Trou d'ozone »

- تلوث المياه والأراضي.

- زحزحة التوازنات البيئية.

- فساد التنوع الأحيائي.

- إلخ... .

2 . الأزمة البيئية المعاصرة :

لايمكن طرح مشكلة الأزمة البيئية المعاصرة دون الرجوع إلى النظرية الغربية التي نمت وترعرعت في أحضانها هذه الآفة الناجمة عن الخلفيات سالفة الذكر، وعن الفكر الاقتصادي الليبرالي الذي يترك دائرة العرض والطلب مفتوحة على مصراعيها، وبالتالي فإن اهتمامه ينصب نحو مصلحة المنتج والمستهلك. ولكن هناك طرف ثالث سقط سهواً أو أغفلته النظريات الاقتصادية وهو الإنسان، الذي يكون منتجا تارة ومستهلكا تارة أخرى ثم يتحتم عليه في نهاية الأمر أن يعاني من الآثار المختلفة لتدهور البيئة.

وأمام هذا الفهم الضيق برزت في أوروبا حركات اجتماعية هدفها القيام بالدور الاجتماعي لسد القصور ودفع الضرر من منظور حضاري. وقد عرفت هذه الحركة مرحلتين أساستين:

المرحلة الأولى : كانت في العقدين الأول والثاني من القرن التاسع عشر عندما بدأت الآلة في الانتشار، وبدأ الاستغناء عن اليد العاملة.

المرحلة الثانية : بدأت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عندما سادت الآلة وتحولت من ظاهرة محلية إلى ظاهرة قومية غطت بلدانا كاملة في أوروبا.

أدى هذا الانتشار إلى بروز حركات عمالية مناهضة وفكر جديد مبني علي مبدإ أن المشكلة ليست في التقنية وإنما بالتحديد في علاقات الإنتاج (الفكر الماركسي). ومهما كان لهذه المفاهيم من أثر في التحولات التي عرفها العالم الغربي، فإنها لم تستطع التغلب على مشكلة البيئة، نظراً إلى أن تقنية الحضارة الغربية بدأت أساساً بالارتكاز على استغلال الموارد الطبيعية دون اكتراث بالمحيط البيئي أي إن هذا السلوك كان غير قادر على التعايش مع شروط سلامة الحياة على وجه الأرض. واليوم نجد أن مشكلة البيئة، أصبحت لديهم شبحاً جاثماً على سائر المستويات، بدءا برجل الشارع حتى الأجهزة السياسية ومراكز القرار.

وتتجلى الأزمة البيئية الغربية المعاصرة في المظاهر التالية.

التلوث البيئي:

يعني التلوث اصطلاحا تكدير الشيء أو تلطيخه.

وينقسم إلى:

*تلوث الهواء والأرض والمياه: وهو ناتج عن النمو الصناعي السريع واحتكاك الإنسان المعاصر بمحيطه الكيميائي بصفة يومية مما يترتب عنه التزايد المفرط للنفايات الكيماوية المتراكمة في الغلاف الأحيائي للأرض، حتى أن بعض المختصين شبهوا هذا الغلاف بإسفنج كبير مملوء بالمواد السامة كـ « DDT » والرصاص « Pb »، والزئبق « Hg »، إلخ...يسبح في فضاء مملوء بالغاز الفحمي، وثاني أوكسيد الكبريت (SO_2)، وأوكسيد الكاربون (CO) وثاني أوكسيد الأزوت NO_2 وغير ذلك من المواد السامة مما تستحيل معه الحياة البشرية. ويشكل الغاز الفحمي « CO_2 » الحلقة الكبرى التي أدت إلى بروز أثر البيت الزجاجي « Effet de serre » الذي أدى إلى ارتفاع درجة الحرارة على وجه الأرض، وزيادة الفيضانات بسبب ذوبان الثلوج القطبية. ويمكن أن نقسم هذا التلوث إلى مجالين اثنين:

أ) المجال الكيميائي: يهم هذا التلوث الجوانب التالية من البيئة:

الغلاف الجوي والأرض: يتعلق هذا التلوث بالأنظمة البيئية الأرضية المختلفة التي تتأثر مباشرة بالنفايات التي تتسرب سواء إلى الجو أو إلى الأرض. وهذه النفايات تكون على شكل غازات أو أجزاء صلبة مختلفة الأشكال والأحجام.

أما الغازات السامة الأكثر انتشاراً فهي أوكسيد الكاربون (CO)، وثاني » أوكسيد « الأزوت <NO_2<، والمواد العضوية المتسربة من مداخن المعامل الصناعية أو المداخن المنزلية. وتقدر كمية ثاني »أوكسيد« الكبريت التي تتسرب إلى الأجواء في العالم 120 مليون طن سنويا. ويتسبب هذا الغاز في أمراض عديدة تضر بالنباتات والحيوانات والإنسان (أمراض الربو وأمراض القلب والشرايين).

كما أن الآزوت الطبيعي المتواجد في الغلاف الجوي يتحول إلى ثاني >أوكسيد< الأزوت الذي يقوم بامتصاص الأشعة فوق البنفسجية، وهذه هي الحلقة الأولى لانطلاق التفاعلات الكيما ـ ضوئية « Réaction Photochimiques » التي ينتج عنها ما يسمى الضباب الدخاني <Smogs oxydants< وهو مكون من عدة مواد يشكل الأوزون (O_3) أخطر مركب متواجد داخلها. يضاف إلى هذا غاز البروكسياستيل نترات « PAN » « Peroxyacetyl Nitrate » الذي يتكون بتفاعل مع الغازات الناتجة عن المحروقات النّفطية لمحركات السيارات. ويشكل <PAN< والأوزون مواد سامة خطيرة بالنسبة للنباتات والإنسان (التهاب العيون). هذا وتقدر كمية الغازات المتسربة في محركات السيارات بالنسبة لكل 1000 لتر من البنزين بـ :

ـ 290 كيلو غرام من »أوكسيد الكربون« « CO »

ـ 33 كيلو غرام من مواد نفطية غير محترقة

ـ 11 كيلو غرام من ثاني »أوكسيد الأزوت« « NO_2 »

ـ كيلو غرام واحد من ثاني »أوكسيد الكبريت« « SO_2 »

هذا فيما يخص الغلاف الجوي.

أما القشرة الأرضية فيكون مصدر تلوثها ناتج عن تلاطخها بأجزاء صلبة من المعادن كالرصاص، والنحاس، والزنك، والكدميوم، إلخ... إضافة إلى أن مبيدات الأعشاب والحشرات وكذلك الأسمدة الكيميائية تبقى المصدر الرئيس لتلوث الأرض، كما يجب أن لا ننسى الفوسفاط الطبيعي الذي يحتوي على مواد معدنية مشعة كاليورانيوم.

تلوث المياه: تتسرب جل هذه المواد (الغازات أو الأجزاء الصلبة) إلى المياه الباطنية، أو إلى مياه البحار والأنهار والأودية، وذلك من خلال الصرف الطبيعي أو من إلقاء هذه المواد مباشرة في تلك الأماكن من قبل المعامل الصناعية أو مجاري الصرف الصحي أو من قبل ناقلات النفط أو السفن العادية. ومياه الصرف هذه تكون محملة بالمواد التالية : الآزوت (N)، الفسفور(P) والبوتاسيوم (K).

يؤثر هذا التلوث على جودة المياه مما يؤدي إلى نقص كبير في النشاط الأحيائي للماء، ويتسبب هذا في تكاثر الجراثيم الضارة التي تعيش في بيئة لاهوائية « Anaérobie ».

يبقى النفط المادة الملوثة رقم 1 في العالم، حيث تقدر الكمية التي تلقى في المياه الموجودة على سطح الأرض ب x1063 طن سنويا. أضف إلى ذلك الحوادث التي تعرفها ناقلات النفط والتي نذكر منها حادثة « Torrey canyon » التي نتج عنها إتلاف 100 000 طن من الطحالب و350 000 طن من الحيوانات، تقدر قيمتها المالية بمليون دولار أمريكي.

ب) المجال الفيزيائي: يتعلق هذا المجال بـ :

- التلوث الضوضائي: الناجم عن النشاط الصناعي، الطيران المدني والحربي، والموسيقى الصاخبة، إلخ... ويترتب عن هذا عدة أمراض نفسية (الاضطرابات النفسية، و الإرهاق والصمم ...الخ).

- التلوث الحراري : يكون مصدر هذا التلوث أجهزة التبريد المستعملة في معامل الطاقة الحرارية أو معامل الطاقة الذرية، ويترتب عليه ارتفاع درجة الحرارة في المحيط المباشر لهذه المعامل، وبالأخص الأنهار التي تعرف تدهوراً بيئياً كبيراً يتمثل في انقراض الموارد الأحيائية من أسماك وطحالب.

- النفايات الصلبة الناتجة عن النشاط المنجمي والنفايات المنزلية.

- النفايات السامة والنفايات المشعة.

التلوث الإشعاعي: وهو أخطر تلوث يهدد البشرية. وينتج عنه تسرب مواد مشعة إلى مكونات البيئة: الماء والهواء والتربة، ومصادر هذا التسرب عديدة وتشكل خطورة على حياة الإنسان والحيوان عند دخول هذه المواد الجسم.

ويعتبر التلوث الإشعاعي لطبقات الهواء المغلفة لسطح الأرض هو دخول هذه المواد المشعة - غازية أو ترابية - في طبقة سمكها 3000-200 متر فوق سطح الأرض. وتتحرك هذه المواد

في الغلاف الجوي حسب عوامل كثيرة أهمها درجات الحرارة المختلفة لطبقة الهواء. ويعتبر المطر من أهم العوامل المقاومة حيث يقوم بغسل الهواء من هذه المواد.

أما التلوث الإشعاعي للماء فيشمل تسرب أو سقوط مواد مشعة في مياه البحار، والأنهار، والأودية والبحيرات وكذلك المياه الجوفية. تتحرك المواد المشعة في الماء حسب عوامل كثيرة، منها: نوع الماء وحركاته، وكذلك عوامل الخلط والترسب، والخاصيات الكيميائية للمادة المشعة، والخاصيات الفيزيائية للماء.

أما التلوث الإشعاعي الذي يصيب التربة فيتداخل من تلوث المياه الجوفية وكذلك مع امتصاص المادة المشعة ببذور الزراعات المختلفة، وسقوط المواد المشعة على نصل أوراق هذه الزراعات. وتتعامل المواد المشعة مع التربة طبقا لعوامل كثيرة، من أهمها : نوع التربة ودرجة حرارتها ورطوبتها.

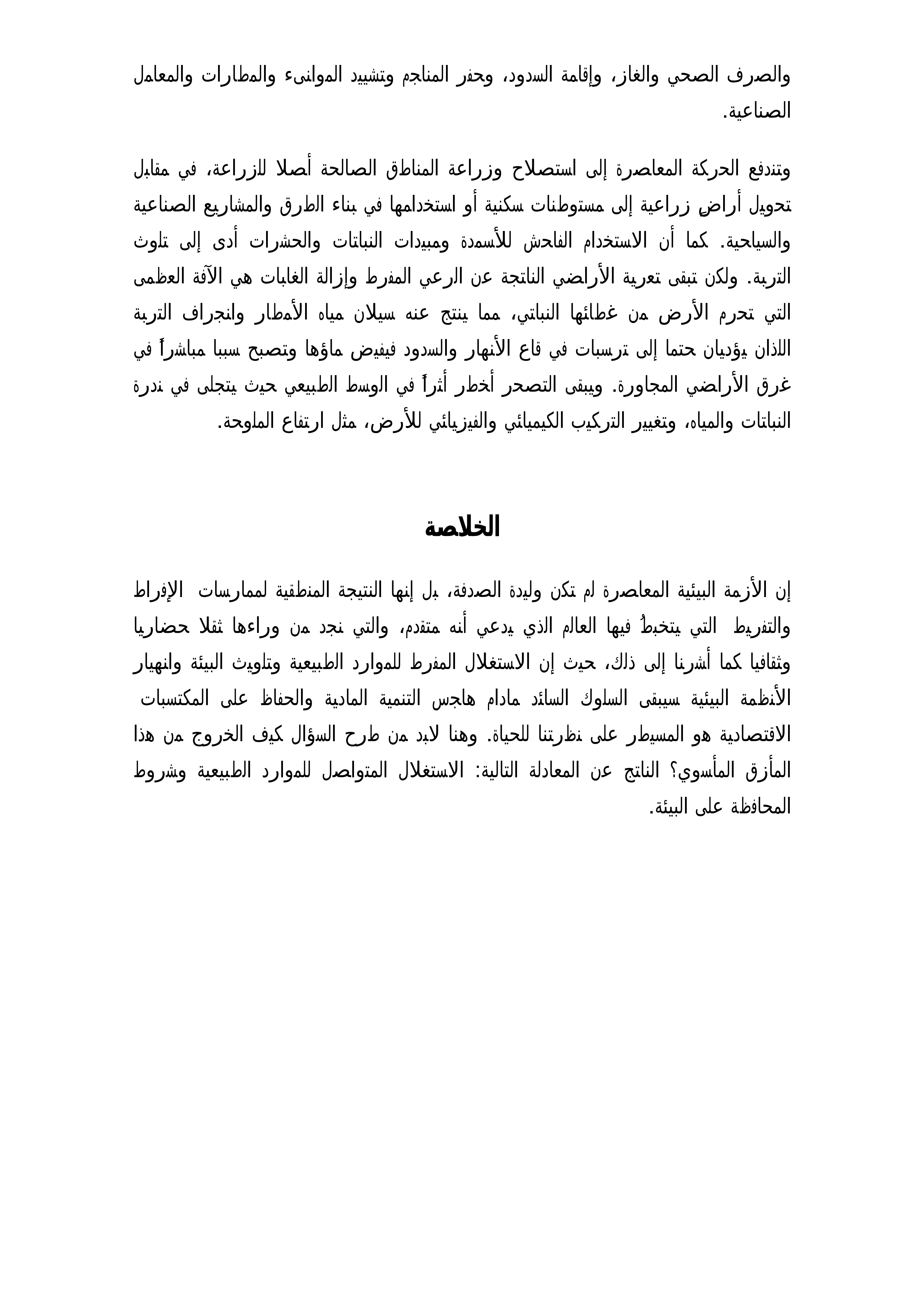
ولابد أن نشير هنا إلى أكبر فاجعة عرفتها البشرية وهي : انفجار القنبلتين الذريتين في هيروشيما ونكازكي باليابان، من قبل الولايات المتحدة الأمريكية، وانفجار المعمل الحراري بـ » تشيرنوبل « في عهد الاتحاد السوفياتي.

* انقراض الأصناف النباتية والحيوانـ ـ ـية واسـ ـتنزاف الموارد الطبيعية :

يصعب جداً وضع أو إعطاء إحصاءات دقيقة فيما يتعلق بـ الأصناف التي انقرضت أو التي في طريق الانقراض حاليا من هذه الأحياء والموارد. ويرجع هذا إلى عدم انتظام رصد وجمع المعلومات الأساسية. لذا، فإن بعض الأنواع سوف تنقرض قبل أن يتم اكتشافها أو وصفها. وقد تكتشف أنواع أخرى تكون قد انقرضت بعد مضي سنوات عديدة، بسب عدم كفاية الرصد.

لهذا السبب خلص معظم الأخصائين أن ربع مجموع التنوع الأحيائي على وجه الأرض يتعرض لخطر الانقراض خلال فترة تتراوح بين 30-20 سنة مقبلة، إذا ما لم يتم وضع حد أو شروط لاستغلال الموارد الطبيعية. هذا ويمكن أن نقول إن بين سنة 1996 وسنة 2020،سوف تنقرض أحياء في الغابات الاستوائية تقدر بين %15-6 من الأنواع في العالم، وهذا يعني احتمال فقدان 50000-15000 نوع سنوياً أو140-40 نوعاً يومياً وقد سجل مركز الرصد البيئي أن نحو 220 000 نوع من النباتات والحيوانات تتعرض للانقراض بالفعل.

وترجع أسباب الانقراض إلى تحول البنيات البيئية التي تعيش فيها هذه الكائنات. أما العوامل الرئيسية التي تؤثر في تغيير محيط الحياة والتي تؤدي إلى تدهور البيئة، فيمكن إيجازها في النشاط البشري المتمثل في تكثيف أعمال الزراعة والتجريف والتوسع في المستوطنات السكنية، والتغيير المستمر في شكل الأرض ومجاري المياه، وبناء الطرق وشق خطوط أنابيب المياه



والصرف الصحي والغاز، وإقامة السدود، وحفر المناجم وتشييد الموانىء والمطارات والمعامل الصناعية.

وتندفع الحركة المعاصرة إلى استصلاح وزراعة المناطق الصالحة أصلا للزراعة، في مقابل تحويل أراضٍ زراعية إلى مستوطنات سكنية أو استخدامها في بناء الطرق والمشاريع الصناعية والسياحية. كما أن الاستخدام الفاحش للأسمدة ومبيدات النباتات والحشرات أدى إلى تلوث التربة. ولكن تبقى تعرية الأراضي الناتجة عن الرعي المفرط وإزالة الغابات هي الآفة العظمى التي تحرم الأرض من غطائها النباتي، مما ينتج عنه سيلان مياه الأمطار وانجراف التربة اللذان يؤديان حتما إلى ترسبات في قاع الأنهار والسدود فيفيض ماؤها وتصبح سببا مباشراً في غرق الأراضي المجاورة. ويبقى التصحر أخطر أثراً في الوسط الطبيعي حيث يتجلى في ندرة النباتات والمياه، وتغيير التركيب الكيميائي والفيزيائي للأرض، مثل ارتفاع الملوحة.

الخلاصة

إن الأزمة البيئية المعاصرة لم تكن وليدة الصدفة، بل إنها النتيجة المنطقية لممارسات الإفراط والتفريط التي يتخبطُ فيها العالم الذي يدعي أنه متقدم، والتي نجد من وراءها ثقلا حضاريا وثقافيا كما أشرنا إلى ذلك، حيث إن الاستغلال المفرط للموارد الطبيعية وتلويث البيئة وانهيار الأنظمة البيئية سيبقى السلوك السائد مادام هاجس التنمية المادية والحفاظ على المكتسبات الاقتصادية هو المسيطر على نظرتنا للحياة. وهنا لابد من طرح السؤال كيف الخروج من هذا المأزق المأسوي؟ الناتج عن المعادلة التالية: الاستغلال المتواصل للموارد الطبيعية وشروط المحافظة على البيئة.